تاريخ استقبال المقال: 2016/08/20 تاريخ قبول نشر المقال:2016/09/15 تاريخ نشر المقال: 2016/11/15

الرؤية الإصلاحية في فكر مالك بن نبي

د. لامية بوبيدي جامعة الوادي – الجزائر

أ. كريمة مقاوسي جامعة الوادي – الجزائر

البريد الإلكتروني : lamiaboubidi@gmail.com

ملخص:

إن ما يعانيه العالم الإسلامي من تشرذم و انقسام منذ أمد طويل إلى غاية اليوم، قد دفع بثلة من المفكرين المصلحين إلى البحث عن آليات للخروج من هذا الوضع المتأزم، و من بينهم المفكر الجزائري مالك بن نبي الذي ترك بصمته في تاريخ الفكر الإسلامي المعاصر.

فقد قام بن نبي بتشخيص حال العالم الإسلامي الراهن، فوجده يعاني من مشكلات جمة كمشكلة اللافعالية، و القابلية للاستعمار، و لعل الأهم منهما مشكلة الأفكار، هذه الأخيرة التي بنى عليها تنظيراته الفكرية – إذ نجده يؤكد على ذلك في جل كتاباته– فهي السبب الأساس فيما يعانيه هذا العالم من فوضى و قصور حضاري.

وعليه حاول برؤية واقعية أن يحدد اللزوميات الشرطية في عملية البناء الحضاري، الذي يتحقق في ظل وجود الفكرة الدينية الإسلامية التي تؤلف ذلك الانسجام بين العناصر الثلاث المكونة للحضارة، حضارة منتجة و ليست حضارة التكديس أو الاستهلاك و الاستيراد.

الكلمات المفتاحية : الرؤية الإصلاحية ، مشروع البناء الحضاري، فكر مالك بن نبي .

Reformist vision in the thought Malek ben NABI

Abstract :

The Muslim world suffer from fragmentation and split for a long time until today, it has pushed a few thinkers reformers to find the mechanisms for to get out of this crisis situation , the Algerian thinker Malek Ben NABI is one of them ,which left his mark in the history of contemporary Islamic thought.

Ben NABI present a diagnostic of the current Muslim world, and found him suffering from serious problems as a problem inefficiency, and the ability to colonize, and perhaps most importantly, their problem ideas, as we find it emphasizes that in most of his books- it is the basis cause of the suffering of this world of chaos and civilized deficit.

Ben NABI tried to determine the conditions of the civilization construction, which is achieved in the presence of Islamic religious idea that make up that level of integration between the three constituent elements of civilization process, it's about productive civilization and not stacking or consumption and not import.

Keywords: Reformist vision, the construction project of civilization, thought Malek ben NABI**.**

مقدمة :

يعد مالك بن نبي من المفكرين المعاصرين الذين كان لهم الدور الهام في إعطاء صورة أو رؤية كلية واضحة عن حال وواقع العالم الإسلامي بلغة سوسيولوجية نهضوية تجديدية و بفكر عربي متأصل وبروح إصلاحية تتباحث في جدليات مشروع البناء الحضاري، الذي أضحى مجرد شعارات طامعة، طامحة واهمة وسرابية تهليلية ترفعها شعوب و قادة هذه الأمم (الوحدة العربية، الاتحاد المغاربي، الاتحاد الإفريقي ...) فأي مشروع بناء كان مصيره الوأد في المهد، في ظل التوجه الغربي نحو إنشاء قوى عظمى تعاقدية تحكمها فلسفات براغماتية اداتية بحتة .

من هذا المنطلق حاول مالك بن نبي المصلح المجدد الجزائري الخوض في القضايا الراهنة للوطن الإسلامي العربي–الذي يعاني التشرذم و الانقسام إلى حد التناحر– بفلسفة نقدية عقلانية إصلاحية ساعية نحو إعادة بعث و إحياء الحضارة الإسلامية العربية بمقومات و أسس متينة مخرجا إياه من دائرة التبعية و الاستعمارية و الانهزامية إلى الفعالية و الاستقلالية و القيادية .

إن البعد السوسيولوجي في فكر مالك بن نبي يتجلى في استنطاق واستنباط واستبطان واقع المجتمعات الإسلامية المعاش، لفهم أوضح ورؤية واقعية و تفسير موضوعي عقلاني هادف إلى غد أفضل مرهون بالتحرر من الأفكار الغيرية القاتلة والهدامة، و بتوليد أفكار ذاتية مجتمعية خلاقة بناءة مادام السبب وراء فشل أي مشروع بناء حضاري لا يكمن في الوسائل بل هو مرتبط بالأفكار، ففوضى الأفكار التي تسود المجتمع و تشوه البنية المفاهيمية و الإدراكية لدى الفرد والمتمركزة على مستوى الوعي الباطن و المتغلغلة في روحه جعلت منه جسدا بلا روح بلا أهداف يهيم في هذه الحياة بلا معنى بلا جدوى. هذا النموذج من الأفراد المسلوبة الهوية و الحرية يعجز عن حمل لواء التغيير و صناعة الحضارة .

تأسيسا على ما ذكر جاءت هذه الورقة البحثية بهدف إلقاء الضوء حول مشروع الحضارة الذي رسم ملامحه مالك بن نبي من خلال الغوص في مختلف شروط النهضة و البناء الحضاري .

أولا – تشخيص راهن العالم الإسلامي :

لقد حاول العديد من المفكرين المسلمين خاصة، وغير هم من المهتمين بأمور الأمة الإسلامية الوقوف على الأسباب الحقيقية التي أدت إلى الوضعية الراهنة للأمة الإسلامية وما تعايشه من ضعف و تصدع، فأوعز البعض ذلك إلى ابتعاد المسلمين عن تعاليم الدين الإسلامي الحقة، فضلا عن شيوع البدع والنزاعات الشخصية التي شتت قواهم و أحبطت مختلف مشروعات النهضة والبناء، و عليه فالمخرج و المنفذ من هذا الوضع المتأزم يكون من خلال الرجوع إلى الإسلام الأول في صورته الأولى. أما أصحاب الاتجاهات الحديثة في التجديد الإسلامي ذهبوا إلى أن السبب الكامن وراء تخلف و وضعف المسلمين يتمثل في عزوفهم عن الأخذ بالمفيد من أساليب الحضارة الغربية و بالذات الجانب التقني منها مع النهي و البعد في الآن ذاته عن التقليد الأعمى للغرب و حضارته، خاصة في جوانبها الفكرية و الثقافية. في حين تيار آخر ارجع هذا الوضع إلى التعصب الديني، و أيضا لعدم مواكبة الإسلام لروح العصر...[1] من هذا المنطلق نوضح فيما يلي الرؤية الواقعية الشاملة التي صاغها مالك بن نبي في تحليله لأوضاع العالم الإسلامي الراهنة .

إن العالم الإسلامي وجود واقعي يتجاوز ذلك المجموع البسيط من الدول والشعوب التي تتخذ الإسلام دينا، بل هو كينونة كلية تقوم على الدين الإسلامي، دين مكن منذ ظهوره من إرساء قواعد حضارة قوية تخطت الحدود الإقليمية والقارية. بل هو الحياة في معناها الحقيقي، حياة تزاوج ما بين الدنيوية و الأخروية في كلية متزنة متناسقة. لقد حدد آليات البناء الحضاري ووضعها في سياقها الواقعي العملي و ما الحضارة الإسلامية التي دامت عدة قرون إلا شاهدا على ذلك، غير أن التغير سنة من سسن الحياة فمن المجد و الإبداع و الفعالية إلى السكون و الهامشية و الانقيادية. فالعالم الإسلامي اليوم هو مجموعة من رواسب قديمة لم تصف من طابع القدم، ومستحدثات لم تتم تنقيتها...عالم متضارب منطو على ألوان من التناقض والتنافر التي تجمعت و تراكمت في هيئة فوضى...[2] في مجتمع فقد توازنه القديم و يبحث الآن عن توازن جديد....وهو لا يزال يتذبذب و لا يعرف له قرارا حتى اليوم، لنشاهد عدم الاستقرار هذا في أنفسنا، و في تصوراتنا للأشياء، ...[3]

فالعالم الإسلامي يعاني من الإخفاق المزمن الذي يتجاوز بعده المتفرد مستحدثا بنية كلية متناسقة و متناغمة متعدد الجوانب، متأصلة في ذاته، و متجذرة في روحه متخطية سياقاتها الظاهرية غائصة في قلبه الهزيل والمعتل، محيلة إياها إلى حالة من الركود و الخمول المستديم و العجز الدائم عن التموقع في هذا العالم. جدير بالتنويه إلى أن البعض قد يوعز فيقصر هذا الإخفاق المزمن إلى إخفاق سياسي أو اقتصادي ....فالوضع يجاوز هذا الفهم البسيط و السطحي إذ انه في الأصل إخفاق حضاري.

بأعين منقب و عقل محلل و بقلب محب شَخَّصَ لنا بن نبي حالة العالم الإسلامي و ما يكتنفه من تضارب وتشرذم ونزعات متباينة، واستعدادات فردية متنافرة ومتناحرة، و فيما يلي نذكر بعض الخصائص البارزة لهذا العالم :

1-اللافعالية: إن الحضارة مادامت وجودا حقيقا فوجودها مرهون بوجود الفرد الفاعل والمتفاعل البناء المخطط، إذ انه صانع الحضارة و مدمرها في الآن ذاته، فهو الوحيد الذي يمتلك مفاتيح و مقاليد البناء، كما يمتلك أسباب الدمار فهو محركها بإرادته التي تنبع من الإطار العام للمجتمع الذي هو جزء منه، فكلما كان المجتمع متماسك و الأفكار فيه دور وظيفي انتظمت إرادة الفرد في اطرادها و تنافست الجهود في مسيرتها المتناغمة، و هكذا فان المجتمع وقدرته- تضيفان صفة الموضوعية على وظيفة الحضارة-.[4]

و الفرد ككينونة اجتماعية فاعلة لا يمكن أن تفهم في خارج سياقاتها التاريخية، إذ انه لا يتغير بوصفه كائنا حيا في حدود التاريخ ؛ و إنما يتغير بوصفه كائنا اجتماعيا تغيره الظروف... فيستطيع أن يزيد أو ينقص من ميزاته الاجتماعية، و فعاليته من ناحية المنطق العملي.[5] و في سياق حديثنا عن الفعالية الفردية والمجتمعية المولدة للحضارة فإننا نرى في حياتنا اليومية كثيرا من اللافاعلية في أعمالنا، إذ يذهب جزء كبير منها في العبث و في المحاولات الهازلة .[6] فكثير من النشاطات التي نؤديها إنما هي نشاطات عشوائية أو طائشة و غير مخططة أو أنها بسيطة و محدودة، و في كلتا الحالتين لا تعود بالنفع و الفائدة على المجتمع و بالتالي لا تسهم في تحريك عجلة البناء. فبعلمية حسابية بسيطة نحصي بها المدة التي يقضيها المسلم في العمل مقارنة باللهو، والنوم ...لنجد أن الكفة تكون مرجحة للجانب الثاني، فاستثمار الوقت مثلا في العمل الجاد والنافع كقيمة و ثقافة غائبة و مغيبة عن قاموسنا الحياتي.

و مثال توضيحي آخر لواقع مأسوي مؤلم و مضحك في الوقت ذاته، فالجزائري (باعتبارها مسلما)- كنموذج متكرر في جل ربوع العالم الإسلامي- بمجرد استيقاظه من النوم نجده يستلقي على الأريكة أو على السرير للاستراحة ؟؟؟ أو نجده يجلس مطولا لارتشاف كوب شاي أو قهوة سواء في منزله أو مقهى و تمر الدقائق و الساعات التي تنسل من حياته و هو على ذات الحال و الوضع ؟؟؟ أين نحن من المنطق العملي ؟؟؟

و الإجابة بسيطة فهو إما معدم أو شبه ذلك، و حسب بن نبي أن مرجع ذلك هو العجز في الأفكار الذي من المتوقع أن يخلق أو ينتج في المجال النفسي عجزا في المراقبة الذاتية، و في مراجعة النتائج . ففكرنا لا يقيم علاقات بين النشاطات و الجهود و الوسائل من ناحية، و من نتائجها من ناحية أخرى [7]

ففي دراسة امبريقية أجراها بن نبي تبين وجود حالة من التبديد المفرط لطاقتنا الاجتماعية و تبذير مسرف وغير محسوس في وسائلنا وهذا مظهر من مظاهر اللافعالية التي تعزى إلى العجز في أفكارنا .[8]

إن اللافعالية أضحت الوصم الذي التصق بالمسلم منذ زمن طويل إلى اليوم، هذا الذي كان مضربا و مثلا يقتدى به في الحيوية و النشاط و الإبداع و الإنتاج الفكري، فالمسلمون عامة و العرب خاصة تركوا بصماتهم في تاريخ العلم و المعرفة في ظل أمجاد حضارة إسلامية عززت من مكانة الفاعل المتفاعل، و المتموقع في هذا العالم الفسيح، فكثيرة هي أعمال ابن سينا، ابن بطوطة، الرازي والفارابي فابن خلدون ... كانت و مازلت محل تباحث و نقاش بين عظماء الفكر الغربي المعاصر، وما ساهم في هذا الإنتاج المعرفي و الفكري الضخم هو استثمار ما لديهم من إمكانات ووسائل متاحة دون حاجة للآخر .

أما اليوم فالمسلم لا يستخدم ما تحت يده من وسائل ليرفع من مستواه، ...فهناك عجز في الربط بين الفكرة و نتيجتها المادية، فأما فكرة لا تتحقق و إما عمل لا يتصل بفكرة، هناك أساطير تكف المسلمين عن العمل عن العمل المثمر، منها : أسطورة الفقر ،..، و من الأساطير الاستعمار ...[9]

2-الفهم الخاطئ لمدلول الحضارة: بين حضارة التكديس و بناء الحضارة مفارقة غريبة بنى من خلالها بن نبي مقاربته الحضارية، فالتوجه العام للعالم الإسلامي كان نحو الأولى من خلال اقتناء و تكديس منتجات الحضارة الغربية مدعيا مبادرته نحو البناء الحضاري، في فهم خاطئ ساذج لمدلول الحضارة. فالحضارة تبنى و لا تشترى، فقشور و بهرجة الحضارة الغربية سلبت عقول المسلمين و سكنت روحهم و استحوذت عليها، فتملكتهم كما استعبدتهم دهرا من الزمن. فالقائم محصلة للنظرة السطحية غير العميقة في لب القضية، إنما نظرت إليها على أن تحصيل الحضارة إنما يكون من طريق جمع و تكديس منتجاتها(الحضارة الغربية)، غير أن الفرق شاسع– حسبه – بين بناء حضارة و تكديس منتجاتها.[10]

إن العالم الإسلامي أضحى جزءا من مجتمع عالمي فوق صياغي يبيعه الأشياء و يفرض عليه في الوقت نفسه مقاييسه، و يرغمه على إعادة اعتبار لمعاييره، و على تمثل أفكاره، حسنها و رديئها و هكذا رد المجتمع الإسلامي على مفعول هذه الرابطة باعتبارها إلزاما في الحقل الاقتصادي و فوق الإلزام في الحقل الفكري، و هكذا نشأ تباين أدى إلى الاضطراب و الفوضى ...[11]

في ظل هذه المعطيات ينتمي المسلم إلى عالم غيري مستورد –ليس من صنعه – مفروض عليه بمضامينه و محتوياته فضلا عن مقتنياته، فكما نستورد تقنية فنحن أيضا نستورد أطرها الفكرية و معاييرها، و عليه من الواجب أن نقوم بعلمية الغربلة و التدقيق و التمحيص لكل وارد، من اجل تجنب حدوث أي اختلالات أو انزلاقات تأخذنا نحو الهاوية...غير أننا مأخوذون و مفتتون بالآخر نتمثله في ذاتنا في حياتنا و تطلعاتنا، فعقدة الآخر قد تملكتنا. و في هذا السياق يقول مالك بن نبي : "العالم الإسلامي أمام طوفان عالم الاستيراد، من الواجب أن نقيم على عتبة كل موائل مصفاة لا تسمح بالعبور لغير الضرورات الحقيقية، هذا النوع من التكرير أو التصفية يجب إن يحدث على عتبة المجتمع نفسه، عبر وعي ثقافي يؤسس خطة سياسية، فالوعي لديه أضحى ممزقا بين الرغبة في استدراك متأخر يعرف شدة وقعه في المجال السياسي نتيجة تخلف الذي حاق به على الصعيد الاجتماعي،بين الرغبة في إنقاذ تراث أخلاقي يعرف مدى قيمته [12]."

3-القابلية للاستعمار: إن ما تشترك فيه شعوب العالم الإسلامي أن جلها كان مستعمرا من قبل مستعمرين استنزفوا خيراتها و ثرواتها و لم يتوقفوا عند هذا الحد بل كان الاستعمار أعمق من ذلك في محاولة لقولبة هذه الشعوب في قوالب غربية هجينة تابعة قلبا و قالبا، وعليه فإن المستعمر لا يسلب الشعب المستعمر أشياءه فحسب بل يستولي أيضا على نفسه[13] . فتجاوز الاستعمار مدلولاته الكلاسيكية إلى مدلولات أكثر حداثة و خطورة، إذ تغلغل في ذوات الأفراد و الشعوب من خلال ترسانة من الأسلحة المفاهيمية و القيمية التي شوهت الوعي الإسلامي مدمرة كل إرادة حية رافضة للواقع الراهن، فتزييف الواقع أدى إلى تزييف وعي المسلم بتصورات مغلوطة كتلك الادعاءات التي تعمد المستعمر نشرها من حيث انه مصدر للسلم و الحضارة مبعدا عنه كل الشبهات؟؟؟ هذا لا يعني أن هذا المستعمر يفد إلى المستعمرات ليحركها و إنما

يجيء ليشلها، كما يشل العنكبوت ضحية وقعت في شباكه و لكنه في نهاية الأمر يغير ظروف حياة المستعمر من جذورها ، فيساعده بذلك على تغييره نفسه [14] .

في ظل هذه التصورات الذهنية والنفسية المدعمة تدريجيا من طرف الاستعمار تتنامي في ذوات المستعمر قابلية لاواعية للآخر (الاستعمار). جدير بالذكر إلى أن الاستعمار قد اتخذ طابعا جديدا في ظل مفهومات العولمة والأمركة... يتجاوز الوجود الكلاسيكي إلى وجود معنوي فكري و هو اخطر من الأول إذ يستهدف البنية النفسية للمستعمر، فهو يدرك أن الوسط الإسلامي مصاب بشيء من ضعف الإرادة الذي يتركنا في حيرتنا أمام بعض الألغاز فلا نحاول حلها، أو بصورة اعم أننا نقف في منتصف الطريق لا نحاول الوصول إلى نهايته، و هذا يتجلى في هروبنا من المشكلات حينما تفاجئنا .[15]

يبرر الكثير من المسلمين فشله بما يعرف بالاستعمار، فما نحن عليه هو محصلة عملنا و مجهوداتنا و إخفاقاتنا المتكررة الناجمة عن الاعتباطية و العشوائية التي تسير أمور حياتنا، لذا لا يجب علينا أن نحمل أخطاءنا و أوزارنا الغير أو بالأحرى الاستعمار، من هذا المنطلق طرح علاء الدين الاعرجي تساؤلا مفاده هل يمكن أن نحمل الآخر معظم مسئولية في ظاهرة تخلفنا، أم أن السبب الأساسي الحاسم في استمرار هذا التخلف يرجع إلى الأنا؟ .[16]

عموما يميز مالك بن نبي بين مفهومين هما الاستعمار و القابلية للاستعمار إذ يقصد بالأول عدم امتلاك المسلم جميع الوسائل التي يريدها لتنمية شخصيته و تحقيق مواهبه، أما الثاني فالقصد منه عدم استخدام و استغلال و استثمار المسلم لما لديه تحت يديه من وسائل و إمكانات استخداما مؤثرا و في بذل أقصى الجهد ليرفع من مستوى حياته فضلا عن الاستخدام الوقت في ما يعود عليه بالنفع.[17] فالروح لا تعود بحاجة إلى استعمار خارجي لكي يستبعدها، ذلك أنها أصيبت باستعمار آخر و اشد وأدهى انه استعمار داخلي يلتف حولها كالإخطبوط القاتل ...و هكذا تضمحل الروح و تتضاءل شيئا فشيئا ثم تغطس أكثر فأكثر حتى تلامس القعر، و لكنها لا تلامسه ذلك انه ينبغي لها أن تتعذب إلى أقصى حد ممكن لا يعود فيه للعذاب من معنى، و هكذا تصبح الأمة عاجزة عن الانتصار في أي معركة من معاركها [18].

يعتمد الاستعمار العديد من الآليات و الأساليب التي من خلالها يحقق أهدافه متبعا خططا إستراتيجية رسمها و باشر العمل بها، فالاستعمار كالفيروس الذي يكتسح جسد المريض بصمت و بهدوء يقضي كلية عليه، حتى لو بادر هذا المريض لعلاج دائه فلا نفع من الدواء لن الوقت قد انقضى و الفيروس انتشر في كل الجسد لا نفع للكي أو البتر و النهاية وفاة حتمية. و عليه فالاستعمار يحيط بالمستعمر من كل النواحي السياسية، الاقتصادية، الدينية ...و شبكات العلاقات الاجتماعية محدثا انشقاقات و تصدعات في كل بنية منها، فيتهاوى البنيان كلية. و هذا ما ذهب إليه بن نبي في قوله: "بديهي أن طرق الاستعمار شديدة التنوع في هذا المجال، حيث يقتضيه الأمر أن ينشئ في مجتمعنا أعظم قدر من الفراغ الاجتماعي مستخدما جميع الوسائل الاقتصادية والسياسية والثقافية والنفسية.... والاستعمار لا يطبق سياسة دون أن يقدر آثارها السلبية التي يمكن أن تنشا عنها بالنسبة لمصلحته،.."[19]

إن الاستعمار يستهدف القضاء نهائيا على المستعمر فلا يكتف بتوفير مختلف الترتيبات والاستعدادات لإفقار المستعمَر ماديا فحسب بل يعمل على توفير مختلف الترتيبات لتلويثه أخلاقيا، ليزيد الإفقار والتلوث

معا في اتساع الهوة التي يجعلها أمام القاصر حتى لا يستطيع بلوغ رشده أبدا[20]. و ما نعانيه اليوم من أزمة أخلاق و فوضى قيم إلا محصلة ذوات مريضة مسلوبة الهوية و الحرية و نماذج تمت قولبتها بأيد و بعقول غربية.

4-الصراع الفكري: إن ما يدل على قوة الشعوب و الأمم ما لها من انتاجات فكرية ذاتية الصنع، إذ تعكس آلام و آمال هذه الشعوب و تطلعاتها، فالرأسمال الفكري يمثل مجموع المكتسبات و التمكنات الفكرية و اللغوية المتراكمة و النابعة من مجتمع ما، فتمكنه من التموضع في هذا الوجود.

إن الأفكار الغيرية اكتسحت العالم الإسلامي، جاعلة من المسلم جسدا بلا روح بلا أفكار، ليتمثل بذلك الآخر في فكره و معاييره، فإذا حللنا خصائص الفكر العربي الإسلامي طوال هذا القرن أي عام 1958 نجده ينقسم إلى عصور ثلاثة :

- ✓ عصر النوم الذي استمر قرونا.
- ✓ عصر استرداد الوعي
- ✓ عصر الفوضى و الذبذبة الراهنة ، و هنا وقع العالم في فوضى الأشياء و الأفكار .[21]

و فيما يتعلق بطبيعة الأفكار في العالم الإسلامي فإنها تتميز بالضعف والوهن فلا تترجم حال شعوبه و مآلها و السبب وراء ذلك أنها مستوردة حالها كحال التقنية والوسائل، و عليه فإنها تترجم بل تنقل حال الآخر. فهل معنى ذلك أن العقل الإسلامي في حالة سبات عميق؟؟ أم يعاني العجز المستديم ؟ و يدفعنا الحديث عن مشكلة الأفكار دفعا إلى الحديث عن مشكلة الثقافة باعتبارها وعاء الفكر، فهي مرآة الشعوب، فما تعانيه من فوضى أفكار و إخفاقات متكررة ... حتما يتمظهر في بنيتها الثقافية، فما الثقافة العربية إلا ثمرة و سبب و صورة لهذا الإخفاق المتكرر.[22] إن ما تعاني منه الثقافة العربية من تمزيق و أزمة ليس إلا انعكاسا لأزمة المجتمع نفسه.[23]

نعيش اليوم غزوا ثقافيا متناميا باستمرار و بشكل دائم متخذا صورا و أشكالا متعددة تتغلغل في أعماق و قلب الثقافة الأصلية، محدثا جدلا و صراعا ثقافيا محتدما و درجة هذا التصادم تتوقف على مدى قابلية و تقبل هذا الوافد، فالبعض يهلل له و البعض الآخر يغلق المنافذ معتقدا باستحالة نفوذه، غير انه وهم و خيال، فالثقافة تتسرب في قلب و روح المجتمع دون استئذان أو تحفظ، و عليه علينا أن نعد العدة من اجل الأخذ بالنافع منها و ترك السيئ.

إن المواجهة بين الثقافة الغازية والأصيلة أمر حتمي نستعد له من خلال إنتاج منتجات حضارية ذاتية الملمح و قوية البنى تبرز كمقوم اجتماعي حضاري و بخاصة في ظل وجود أرضية فكرية متينة تتمثل في الثقافة الإسلامية، فهل تمكن العالم الإسلامي من جعل ثقافته مصدر قوته؟؟؟ بالأمس كانت الثقافة الإسلامية مصدرا للثقافات الغربية، أما اليوم فنحن نستقي مفهوماتنا منهم. بالرغم من ذلك فإن الأمة الإسلامية لم تستسلم للثقافة الغازية، و التجأت إلى تاريخها الثقافي والحضاري تحتمي به من الاقتلاع إلا أن هذا الالتجاء إلى المواريث مع العجز عن التعامل المنهجي معها، و إن حال دون ذوبان الأمة إلا انه لم يمكنها من عملية النهوض و البناء الحضاري.[24]

إن عملية البناء الحضاري تستوجب توافر ثقافة وليدة من المجتمع تحمل أفكاره فتحولها إلى نتاجات حضارية مادية، تشبع حاجاته و متطلباته فضلا على ذلك أنها تحمل سماته.

ثانيا –مشروع البناء الحضاري :

لقد سطع نجم المفكر الجزائري مالك بن نبي في سماء الفكر الإسلامي من خلال محاولاته المتكررة للدعوة إلى إصلاح أوضاع العالم الإسلامي الراهن الذي يعاني اختلالات و تمزقات تكاد تدفع به إلى الهاوية، و ذلك بالوقوف على مختلف العناصر الواجب توفرها في عملية البناء الحضاري ، و أيضا الكشف عما يعيقها، معتمدا في ذلك النموذج الإسلامي باعتباره الأنموذج الأسلم و الواجب تبنيه في مشروع بناء الحضارة. فيمايلي نتشارك البعض من الأفكار الهامة التي حرص بن نبي على عرضها في غالبية كتاباته .

1-عناصر البناء الحضاري: بما أن الحضارة هي مركب من ثلاث عناصر أساسية هامة هي: الإنسان، التراب، الوقت .... حاول بن نبي صياغتها في شكل معادلة علائقية وظيفية :

حضارة = إنسان + تراب+ وقت ، وبنوع من التفصيل نتطرق إليها في الفقرات الموالية[25]

- ✓ **الإنسان:** هنالك من يحتاج إلى مؤسسات، بينما نحتاج هنا إلى رجال، فمن الرجل تنبع المشكلة الإسلامية بأكملها و بخاصة في الجزائر، إذ يجب أولا أن نصنع رجالا يمشون في التاريخ مستخدمين التراب والوقت و المواهب في بناء أهدافهم، ومن الملاحظ أن الفرد يؤثر بثلاث مؤثرات أولا: بفكره، ثانيا: بعمله، ثالثا: بماله
- ✓ **التراب:** و الحديث في هذا السياق عن القيمة الاجتماعية للتراب، والتي يستمدها من قيمة مالكيه، فحينما تكون قيمة الأمة مرتفعة، و حضارتها متقدمة يكون التراب غالي القيمة، و حيث تكون الأمة متخلفة يكون التراب على قدر الانحطاط...و التراب في ارض الإسلام عموما على شيء من الانحطاط، بسبب تأخر القوم الذين يعيشون عليه.
- ✓ **الوقت:** نحن في العالم الإسلامي نعرف شيئا يسمى الوقت، و لكنه الوقت الذي ينتهي إلى عدم لأننا لا ندرك معناه، و تجزئته الفنية لأننا لا ندرك قيمة أجزائه من ساعة و دقيقة و ثانية، و لسنا نعرف إلى الآن فكرة الزمن الذي يتصل اتصالا وثيقا بالتاريخ...و بتحديد فكرة الزمن يتحدد معنى التأثير والإنتاج وهو معنى الحياة التي تنقصنا .

عموما إن بناء الحضارة يتطلب توافر توازن بين هذه العناصر الثلاثة يسكب مزيجها في قوالب الانجاز الحضاري [26] ، إن الحضارة ليست أساسا تكديس منتجات حضارية بل هي بناء مركب اجتماعي يشمل ثلاث عناصر فقط [27] والأهم من ذلك وجود مركب نطلق عليه مركب الحضارة و المتمثل في الفكرة الدينية التي رافقت دائما تركيب الحضارة خلال التاريخ [28] و حسبه دائما فإن العود و الرجوع إلى دين الأولين دين الإسلام في صورته الأولى دون زيف أو مغالاة شرط أساس في عملية البناء الحضاري. فحينما جاء الإسلام استطاع أن يخلق حضارة خلال نصف قرن، و معنى ذلك أن الإسلام أتى بالمسوغات الدافعة لليد والعقل والقلب لكي تحقق متساندة حضارة ذات إشعاع .[29] فالمسوغات هي التي تحرك الطاقات الاجتماعية و توجهها إلى مستوى أعلى من مستوى الحيوان، الذي يحيا حياة فردية، و هي التي تدفعها إلى مستوى مصلحة الآخرين. فإن فكرة الفاعلية أو التوتر تمس الواقع الاجتماعي في كل الظروف، مسا يضعها

معه كل مجتمع أو لا يضعها وراء أعماله و سلوكه. فالتوتر حالة نفسية اجتماعية دل التاريخ على أنها تنشأ في ظروف معينة ثم تزول في ظروف أخرى، و أن المسوغات هي التي تكون الدوافع الإنسانية التي تدفع النشاط إلى أعلى قمة [30].

2- معيقات بناء حضارة : بالرغم من توافر العناصر الثلاث المكونة للحضارة فضلا عن وجود الفكرة الدينية الدافعة نحو إحداث المواءمة و التفاعل الايجابي فيما بينها؛ إلا أن الإخفاق و الفشل كان نصيبا للمشروع الحضاري الاسلامي، و عليه من الجيد البحث في المعيقات و العراقيل التي تؤجل أو تؤخر بل تجعل من مشروع البناء الحضاري مجرد وهم دائم.

فانطلاقا من إدراك أن مشكلة كل شعب في جوهرها مشكلة حضارته... [31] نتبين من خلالها وجود خلل كامن أو مستتر...يدفعنا إلى أن نسلك إزاءه مسلك الطبيب أمام الأمراض، إذ يحدد مكان المرض أو مصدره.[32] و التي حددها مالك بن نبي أربع نذكرها كالآتي: إما أن تنشأ هذه الصعوبات من خلل في عالم الأشخاص، أو خلل في عالم الأفكار، أو خلل في عالم الأشياء، كما قد تنشأ من خلل في علاقات هذه العوالم بعضها ببعض .[33]

- ✓ **خلل في عالم الأشخاص** : فعالم الأشخاص يضم أشخاصا و ذواتا بناءة و أخرى تمثل النقيض بمعنى ذواتا هدامة .
- ✓ **خلل في عالم الأفكار**: ينشأ هذا الخلل من الخطأ في تحديد المفاهيم أو في عدم ربط الأفكار بالطرق الصحيحة فإذا اختلت المناهج المنطقية لدينا فأصبحنا نقول 2+2=45 ...فان هذا يعني أن ثمة خللا قد طرأ على عالم أفكارنا.
- ✓ **خلل في عالم الأشياء**: تنشأ عندما تفقد الأشياء التجانس فيما بينها، فلا تؤدي أغراضها و ربما أحدثت الكوارث .
- ✓ **خلل في علاقات هذه العوالم مع بعضها البعض**: إن أي فساد في علاقات الأفكار فيما بينها أو في علاقاتها مع عالم الأشخاص أو في علاقات الأشياء لابد أن يولد اضطرابا في الحياة الاجتماعية و شذوذا في سلوك الأفراد خصوصا عندما تصل القطيعة مع النماذج إلى مداها الأقصى و تصبح قوالب أفكارنا المطبوعة ممسوحة في ذاتنا، و تصبح أفكارنا الموضوعة و المصبوبة في تلك القوالب لا شكل لها و لا تماسك فيها و لا أهمية لها.[34] في تشخيصه لهذه العوالم السالفة الذكر أكد بن نبي أن الأساس المفاهيمي في العالم الإسلامي ضعيف للغاية، وعالم أشيائنا لا يرتكز على كبير شيء، مضافا إلى ذلك انه حتى الأشياء الموجودة في هذا العالم كنا قد اشتريناها من مجتمعات تملك أفكارا [35]...غير أن الحضارة ليست غرضا نشتريه أو نحوزه، و إنما هي أيضا علاقات و توازنات تاريخية و اجتماعية، ولا يمكن الحصول عليها إلا بتجاوزها، و التجاوز لا يعني الإلغاء، و إنما إنتاج حلول أفضل للمشاكل التي خلقتها الحضارة القائمة بذاتها [36].

فالحضارة ليست كومة من الأشياء والأفكار و لكنها بناء يعكس عبقرية البلد و شخصيته...[37] و في هذا السياق شخص مالك بن بني حالة النهضة الغربية فالتطور الذي تعايشه ألمانيا- تلك التي خرجت منهكة و مستنزفة ماديا- الحضارة الشيئية- بعد الحرب العالمية الثانية، غير أنها أعادت بناء ذاتها مباشرة - كان

محصلة الارتكاز على عالم الأفكار الذاتي المتمركز والمستوعب في ذوات الفرد الألماني ، فهذا الرأسمال الفكري الأساسي المفاهيمي هو الذي مكن من إعادة بناء ألمانيا من جديد .[38]

و منه توصل مالك بن نبي بعد تشريحه لأوضاع العالم الإسلامي إلى أن السبب الحقيقي وراء فشل أي مشروع بناء حضاري لم يكن يوما و أبدا أزمة في الوسائل، و إنما في الأفكار. فهذا العالم يعتقد أن الوسائل والإمكانات هي التي تبني الحضارة و تقويها، وعليه فالفشل الحضاري هو محصلة نقص مادي.

إن هذا الفهم السطحي و الساذج قد دفع بهذا العالم الإسلامي إلى الإقبال و بنهم على اقتناء هذه التكنولوجيا معتقدا انه سيبني حضارة قوية، غير انه اصطدم بواقع مغاير محمل بالإخفاقات المثقلة و المتكررة. ومن خلال التجارب العديدة و المتكررة تتدعم لدينا حقيقة مفادها أن ما يعانيه هذا العالم هو مشكلة أفكار، و ما لم يدرك هذا العالم تلك الحقيقة إدراكا واضحا، فسيظل داء الشبيبة العربية الإسلامية عضالا[39]، و هو ما ذهب إلى تأكيده أيضا طه جابر العلواني، إذ حسبه أن الانحسار الحضاري الذي نعاني منه هو أزمة فكر أولا و قبل كل شيء لأن النسق الفكري للحضارة الإسلامية و إسلامية المعارف قد توقف عند حدود العقول السابقة. [40] و بالتالي من اجل بناء حضارة قوية رائدة يجب أن نعمل عقولنا، نتطلع أمامنا، نرسم خطانا بثبات و بإرادة قوية نحو بناء غد أفضل بواقعية بعيدة عن أي غوغاء و تفلسف

3- آليات تجاوز التخلف : فيما يلي نستعرض جملة من السبل التي تمكن العالم الإسلامي من تجاوز التخلف و الإخفاق المزمن بغية تحقيق قفزة نوعية في حياة الفرد و الجماعة و جعلهما حجرا الزاوية في عملية البناء الحضاري، و هذا بعد أن أكدنا مسبقا أن السبب الكامن وراء هذه الوضعية يكمن في عالم الأفكار و أن المشكلات التي يعانيها مشكلات حضارية:

- ضرورة تنظيم عالم الأفكار و توحيد العمل الإرادي في البلاد الإسلامية هما الأساس لحل إشكالات التغريب والاستلاب، ...و لا يتحقق هذا من خلال الحلول الجزئية وردود الفعل المؤقتة بل لابد من تصور كلي شامل و عمل متكامل [41] كما ندرك أن أي مشروع نفكر فيه بأفكار الآخرين، و نحاول انجازه بوسائل غيرهم معرض للفشل لا محالة .[42]

- ضرورة التعرف على موقعنا في دورة التاريخ من اجل حل مشكلاتنا، فضلا عن إدراك أوضاعنا و ما يعترينا من انحطاط و ما لدينا من مقومات ودعامات دافعة نحو التقدم و النهضة، مما يمكننا من الكشف عن مكامن النهضة و الانحطاط [43]. فتحديد المكان الذي نتموقع و نتموضع فيه حتما يسهل علينا عملية فهم و استيعاب مواطن الضعف والقوة التي تسهم في عملية الإقلاع الحضاري، كما أنها توجهنا نحو حل المشكلات التي تنهك قوانا و تفشل أي مشروع بادرنا به في سياق تاريخي ذاتوي بعيدا عن القهرية الغيرية و التبعية الفكرية ، فالعمل تحت مظلة الآخر جهد ضائع و انتحار أكيد .

- يجب الأخذ بطريقة منهجية الإطار الاجتماعي الذي تكون فيه وعي المسلم المعاصر، بغية منحه أقصى مستوى شخصي ممكن .[44]

- من الضرورة أن نحدد بأية وسيلة سنبلغ بها الهدف، إذ ليس من مصلحتنا أن نستثمر بأي شيء، إذ يجب علينا أن نستثمر ما نستطيع بالوسائل الموجودة فعلا في أيدينا، و الاستثمار الحقيقي و الفعال يكون أساسه متزنا قلبا و قالبا، روحا و جسدا ، يعكس احدهما الآخر، لا أن يشكلا ذاتا متصارعة متناقضة..

– الاختيار الموفق للنموذج الأيديولوجي الذي ينتهجه المجتمع في عملية التنمية و التطور .[45] فمن المؤكد انه بعد الحرب القادمة، إذا ما بقي العالم على قيد الحياة و تأهب لإعادة البناء بطريقة أو بأخرى، فإما أن يستعير من الإسلام قيمه الأخلاقية، أو أن يستعير قيما صنعت من اليهود مثلا بمختلف عناصرها، فإذا كانت الحالة الأخيرة، فلن يكون مستحيلا حينئذ أن تتضافر المصالح والأفكار ضد العالم الإسلامي، كما كان من قبل تضامن الاستعمار، و هو يعمل بإدارة اليهود.[46]

– يجب على المسلم أن يرفع مستواه إلى مستوى الحضارة أو أعلى منها كي يرفع الحضارة بذلك إلى قداسة الوجود، إلى ربانية الوجود، لا قداسة لهذا الوجود إلا بوجود الله . و المسلم إذا أتى بهذا بلسانه و لا بشطحاته الصوفية، و إنما بوصفه إنسانا معاصرا للناس شاهدا عليهم ...و إذا أتى المسلم هكذا في صورته الإنسان المتحضر الذي اكتملت حضارته بالبعد الذي يضيفه الإسلام إلى الحضارة ، عندئذ ترتفع الحضارة كلها إلى مستوى القداسة [47] فالمنظور الحضاري الذي يقدمه بن نبي يقوم على خمس أبعاد هي السنية، الوحي، الجمال، الفعالية، العلم[48] .

– اجل تحقيق شروط الإقلاع يجب أن يقوم التخطيط من مسلمة مدرجة كمبدأ عام لكل تشريع اجتماعي اقتصادي ألا و هي : كل الأفواه تستحق قوتها، و كل السواعد يجب عليها العمل – .[49]

في هذا السياق لقد حدد مالك بن نبي ثلاث شروط للإقلاع الحضاري و هي كالآتي[50] :

- ✓ إمكانية تطبيق المبدأ القرآني عند الإقلاع
- ✓ مطابقة التاريخ منطلقا للمبدأ القرآني ، و هو تغيير النفس في تمحورها حول هدف عيني .
- ✓ العدة الدائمة : التراب و الوقت

خاتمة :

إن إصلاح أوضاع العالم الإسلامي كان و مازال الشغل الشاغل لعدد من المفكرين المصلحين، من بينهم مالك بن نبي، الذي أكد مرارا و تكرارا ومن خلال كتاباته المتنوعة على ضرورة بناء حضارة قوية من خلال إخراج هذا العالم من فوضى الأفكار بالاستناد إلى الفكرة الدينية الإسلامية في سياق تجديدي. فما يعانيه العالم الإسلامي من مشكلات حضارية تعود في الأساس إلى مشكلة أفكار، فالخمول و الجمود الفكري، نمى لديه ذاتا اتكالية لديها القابلية لكل ما هو مستورد في قالبيه المادي و الفكري، مُشَكِّلة بذلك أنموذجا من اللافعالية الحضارية التي تتجلى اليوم في مظاهر عديدة، فمشروع البناء الحضاري مشروع مجتمعي علينا جميعا أن نساهم في تحقيقه في ظل الحفاظ على الموروث الحضاري الإسلامي و إعادة بعثة من جديدة في سياقات متجددة متفاعلة من الآخر دون انصهار أو اضمحلال فيه.

الهوامش

[1] تاج السر احمد حران(2001) : حاضر العالم الإسلامي ، اشبيليا للنشر و التوزيع ، الرياض ، ط1، 31-32

[2]مالك بن نبي (1986): مشكلات الحضارة – وجهة العالم الإسلامي ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار الفكر ، دمشق، ط1،77

[3]مالك بن نبي (1986): مشكلات الحضارة - شروط النهضة، ترجمة عمر كامل مسقاوي و عبد الصبور شاهين ، دار الفكر ، دمشق، 156- 157

[4]- مالك بن نبي(1988) : مشكلات الحضارة –مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ،ترجمة بسام بركة ، احمد شعبو ، دار الفكر ، دمشق ، ط1، 9

[5] مالك بن نبي(1991) : مشكلات الحضارة – تأملات ، دار الفكر ، دمشق ، ط 5 ،26

[6]مالك بن نبي(1984) : مشكلات الحضارة – مشكلة الثقافة -،ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار الفكر ، دمشق ،ط4 ، 87

[7]مالك بن نبي(1960) : مشكلات الحضارة – فكرة كمنويلث إسلامي، ترجمة الطيب الشريف ، دار الفكر ، دمشق ، ط1، ، 59

[8]مالك بن نبي : مشكلات الحضارة ، فكرة كمنويلث ، مرجع سبق ذكره، 61

[9] محمد العبدة (2006) : مالك بن نبي – مفكر اجتماعي و رائد إصلاحي ، دار القلم ، دمشق ، ط1،131

[10] الطاهر سعود (2006) : التخلف و التنمية في فكر مالك بن نبي ، دار الهدى ، بيروت ، ط1، 120

[11]عمر كامل مسقاوي(2013) : في صحبة مالك بن نبي – مسار نحو البناء الجديد ، دار الفكر ، دمشق ، ج2، 774

[12] عمركامل مسقاوي : مرجع سبق ذكره ، 773

[13]مالك بن نبي (1981): مشكلات الحضارة -في مهب المعركة- إرهاصات الثورة ، دار الفكر ، دمشق ، ط3، ، 47

[14]مالك بن نبي : مشكلات الحضارة – وجهة العالم الإسلامي ، ط1 ، 94

[15] مالك بن نبي (1981) : مشكلات الحضارة -الصراع الفكري في البلاد المستمرة ، دار الفكر ، دمشق ، 52-53

[16]علاء الدين صادق الأعرجي (2015): الأمة العربية بين الثورة و الانقراض – بحث في نظرية العقل المجتمعي تفسيرا لأزمة التخلف الحضاري في الوطن العربي ،أي كتب للطباعة و النشر ، لندن ، ط2، 63

[17]مالك بن نبي : مشكلات الحضارة – وجهة العالم الإسلامي ، ط1 ، 95-96

[18]هاشم صالح (2007): الانسداد التاريخي – لماذا مشروع التنوير في العالم العربي ،دار الساقي ، بيروت ، ط1 ، 25-26

[19] مالك بن نبي (1986): مشكلات الحضارة -ميلاد مجتمع شبكة العلاقات الاجتماعية ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار الفكر دمشق ، ط3، 90-91

[20]مالك بن نبي :مشكلات الحضارة - في مهب المعركة ، مرجع سبق ذكره، 44

[21] عمر كامل مسقاوي : مرجع سبق ذكره ، 773

[22]إبراهيم سعفان (2000): أزمة الفكر العربي – شهادات الأدباء و الكتاب من العالم العربي ، اتحاد كتاب و أدباء الإمارات ، الشارقة ،ط1، 56 -57

[23] برهان غليون(2006) : اغتيال العقل – محنة الثقافة العربية بين السلفية و التبعية ، المركز الثقافي العربي ، بيروت، ط4، 30

[24]طه جابر العلواني(1994) : إصلاح الفكر الإسلامي- بين القدرات و العقبات -، الدار العالمية للكتاب الإسلامي و المعهد العالمي للفكر الإسلامي ،الرياض ، ط13،2-14

[25]مالك بن نبي : شروط النهضة،75، 131 -140

[26]مالك بن نبي : مشكلات الحضارة – مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مرجع سبق ذكره ، 10

[27]مالك بن نبي : مشكلات الحضارة – تأملات،مرجع سبق ذكره ،200

[28]مالك بن نبي : مشكلات الحضارة ، شروط النهضة،مرجع سبق ذكره ، 45-46

[29]مالك بن نبي : مشكلات الحضارة – تأملات، مرجع سبق ذكره، 40

[30]مالك بن نبي : مشكلات الحضارة – تأملات، مرجع سبق ذكره ،42

[31]مالك بن نبي : شروط النهضة، مرجع سبق ذكره، 19

[32] مالك بن نبي : مشكلات الحضارة – تأملات، مرجع سبق ذكره ، 22

[33]مالك بن نبي: مشكلات الحضارة – تأملات،مرجع سبق ذكره، 22-24

[34]مالك بن نبي : مشكلات الحضارة – مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مرجع سبق ذكره ، 65

[35]مالك بن نبي : مشكلات الحضارة ، فكرة كمنويلث ، مرجع سبق ذكره، 54

[36]برهان غليون : مرجع سبق ذكره ، 297

[37] مالك بن نبي(1995) : مشكلات الحضارة – من اجل التغيير ، دار الفكر ، دمشق ، ط1، 58
[38] مالك بن نبي : مشكلات الحضارة ، فكرة كمنويلث ، مرجع سبق ذكره 53
[39] مالك بن نبي : مشكلات الحضارة – مشكلة الثقافة – مرجع سبق ذكره ، 117-118
[40] طه جابر العلواني (1994): إصلاح الفكر الإسلامي- بين القدرات و العقبات -، الدار العالمية للكتاب الإسلامي و المعهد العالمي للفكر الإسلامي ،الرياض ، ط4،2
[41] محمد ياسين عريبي : تأملات في بناء المجتمع الإسلامي ، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية ، طرابلس ، ط1، 95
[42] مالك بن نبي (1978) : مشكلات الحضارة - بين الرشاد و التيه ، دار الفكر ، دمشق ، ط1 ، 172
[43] مالك بن نبي : مشكلات الحضارة ، شروط النهضة، مرجع سبق ذكره ، 47
[44] مالك بن نبي : مشكلات الحضارة ، فكرة كمنويلث ،مرجع سبق ذكره 68
[45] مالك بن نبي : مشكلات الحضارة - بين الرشاد و التيه، مرجع سبق ذكره 173
[46] مالك بن نبي (2011):مشكلات الحضارة ، وجهة العالم الإسلامي ،- المسالة اليهودية -، دار الفكر ، دمشق ، ج136،2-137
[47] مالك بن نبي (1991): دور المسلم و رسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين ، دار الفكر ، دمشق ، ط1 ، 41
[48] بدران بن مسعود بن الحسن (رمضان 1420 هـ): الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري – أنموذج مالك بن نبي ، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية ، قطر ، ط1، 77
[49] مالك بن نبي : مشكلات الحضارة - بين الرشاد و التيه، مرجع سبق ذكره 175
[50] مالك بن نبي (2005):مشكلات الحضارة – مجالس دمشق ، دار الفكر ، دمشق ، 25